ولذلك، فان الشاعر في هذه القصائد بالذات هُوَ هُوَ، حسن البحيري الشاعر الرومانتيكي الوطني، صاحب «الأصائل والأسحار» و«أفراح الربيع» و«ابتسام الضحى». اوليس كل هذا الشعر نتاج فترة واحدة؟ مع ملاحظة انه بدأت تطغى فيه الروح الوطنية على الروح الرومانتيكية بحكم التطور الذي لحق قضية الوطن، وبدأ الناس يحسونها سيفا مصلتا على رقبة حياتهم.

اننا نقرأ له أقدم قصائد «حيفا في سواد العيون» مؤرخة في عام ١٩٤٤، وهي بعنوان «نشوة الخيام»، مع عدم اعتبار قصيدته «أفراح المولد»، المؤرخة في عام ١٩٤٢، لأنها منقولة من ديوانه «أفراح الربيع»، فنقف فيها على روح الخيام التي تلتقي فيها عذابات روح المتصوف الصب الحزين الذي (يُفَرفِكُ) سنوات عمره في نشدان «النشوة ومختلف اللذات» دون أن ينال، على عادة الرومانتيكيين، الا الصدى منها وبراق السراب[٤٠]. واذا كان البحيري يكتب عن مدينته «حيفا» في هذه الفترة بروح الرومانتيكي الهائم المدنف بحبها، الا أننا نستطيع أن نستكنه في هذه الروح صلابة الوطني الغيور الذي تشغله حال بلاده وتتسلط عليه قضيتها، فيطلب من مواطنيه البقاء ساهرين عليها. ولذلك نراه يفتح عيونهم على جمالها وبهائها. وكانت «حيفا» من أبرز المدن الفلسطينية جمالا ونضالا، فتراه يعرض بعض صور جمالها ومصابيحها تحت ضوء القمر[٤١]، ثم هو يلتفت إلى بعض غابات الكرمل حيفا، فينصب منها لوحة فنية باهرة، تتنفس من خلال روحه الرومانتيكي عبق الشذا والنسيم، وتفتر عن ابتسام الزهر في أرجائها الفيح[٤٢]. ونراه يهتم أيضا بمدينة «يافا» عروس البحر المتوسط، وأشهر المدن الفلسطينية بشجرة البرتقال، فيعرض علينا من بيارات البرتقال في شهر النيروز والأزهار قصيدة «زهرة البرتقال»[٤٣] من خلال روح الرومانتيكي الشفافة، وروح الوطني الحنون:

أتسأل عن زهرة البرتقال
عن السر في سحر إزهارها
عن الفجر يوقف ركب الصباح
ليقبس فتنة أنوارها
عن العطر تسكب منه النجوم
سلاف الدنان لسمارها
وعن قطرات الندى والليالي
تصوغ حلاها لأقمارها
عقودا تمنت لآلىء الجنان
لو انتظمت بين أحجارها
أتسأل عن زهرة نورت
فهام الفتون بنوارها:
سمائي سقتها مذاب الضياء
وأرضي غذتها بأعطارها

وتتجلى روح الوطني الغيور «الشابية» فيه أثناء هذه الفترة، وهو يصب نقمته على بعض زعماء فلسطين انئذ، ذلك الزعيم الذي أسماه «الصنم المعبود»[٤٤]، فتحسه، من